**8/ التصوّف والمتصوّفة:**

**التصوّف** نزعة عامّة تتجّه إلى التركيز على **الوجدان والكشف والجوانب الروحانية**، وقد نسبت إليها فرقة هامة عرف أهلها **بالصوفية** أو **المتصوّفة**.

اختلف في سبب تسميتهم كذلك، ولعل الراجح أنها نسبة إلى لُبس الصّوف لما شاع من لُبسهم له في أول أمرهم تزهّدا.

يقول ابن خلدون في بيان معنى طريقة التصوّف:"وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامّا في الصحابة والسلف، فلمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختصّ المقبلون على العبادة باسم **الصوفية**." (مقدمة ابن خلدون)

**فالتقلل من الدنيا والإقبال على الله** من أبرز معالم **التصوّف** في الأصل، ثم دخلت أفكار واصطلاحات، كفكرة **الفناء** في الله التي لهج بها **أبو يزيد البسطامي**، وأوّل مظاهرها -بزعمهم- تغيّر أخلاقي في الروح تنحل معه الرغبات والشهوات، ثم انصراف الذهن عن كل الموجودات إلى **التفكّر** **في** **الله**، ثم انعدام كل تفكير إرادي والتفكير في الله من غير وعي، وآخر درجاته **انعدام** **النفس** بالبقاء مع الله، بحيث (لو ضرب بالسيف على وجهه لما شعر به) كما وصفه **السريّ السقطي**.

وقد أشار بعض الدارسين إلى الصلة بين نزعة **التصوّف** ومسلك **الرهبانية** الذي شاع في النصرانية، ومذهب **الأفلاطونية** **الحديثة** التي ينسب معظمها إلى (**أفلوطين**)، وذكر بعضهم أن **ذا النون المصري** المتصوّف ألمّ بفلسفة **أفلوطين** التي ينسبون إليها كثيرا من اصطلاحات المتصوّفة نحو**: الفيض، والتجلّي**، وغيرهما. ولكن تشابه بعض الأفكار والمعاني الاصطلاحات ليس دليلا قاطعا على أن المتصوّفة المسلمين استمدّوا تلك الأفكار والاصطلاحات من أمم وديانات أخرى، فإن **الاتجاهات المتحدة والأمزجة المتحدة تنتج نتائج متّحدة**.

ومن رواد التصوف في القرن الثاني **إبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل بن عياض، وشقيق البلخي، وفي القرن الثالث برز معروف الكرخي، وأبو سليمان الداراني، وذو النون المصري.**

وإلى **ذي النون المصري** تنسب فكرة **الأحوال والمقامات**، وخلاصتها أن طريق الوصول إلى الله شاق عسير، يتدرّج فيه **المريد** مترقّيا من مقام إلى مقام، وقد جعل **الطوسي** المقامات سبعة هي: (التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا)، أما الأحوال فذكروا منها التأمل والقرب والمحبّة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة.

وهذه **الأحوال** هي عندهم **مواهب** من الله، أما **المقامات** فهي **مكاسب** (تكتسب بالمجاهدة).

**وعوّل الصوفية على الذوق والكشف لا على العقل والمنطق**، فذهبوا إلى أن الفرق بين يرى بذوقه ومن يقتنع بعقله كالفرق بين من يرى بعينيه ومن يصدّق كلام غيره، واستعملوا كلمات وتعبيرات الغَزَل والانتشاء وألفاظهما نحو السكر والخمر والوصال والهجران وغير ذلك...

**الغزالي:**

يعد الإمام أبو حامد الغزالي علامة فارقة في تاريخ الفلسفة الإسلامية والتصوّف الإسلامي، عاش في **القرن الخامس الهجري** وكان **غزير العلم حاد الذكاء مرهف الروح**. كان أبوه رجلا صالحا يتكسب من غزل الصوف، يغشى مجالس العلم والذكر، ويعجب بالعلماء والوعاظ ويتأثر بكلامهم، وكان يسأل الله أن يرزقه ولدا يكون فقيها واعظا، فرزقه الله ولدين لم يكتب له أن يعيش حتى يدرك نبوغهما، فأوصى أحد أصحابه أن ينفق على تعليمهما ما تركه من مال، ولما فني ما تركه أبوهما من مال أشار عليهما وصيّهما أن يلتحقا بإحدى المدارس التي كانت تكفل لطلبتها القوت مع التعليم، وهكذا بدأ أبو حامد يتردد على المدارس والعلماء بين **طوس** **وجرجان**، ثم قدم **نيسابور** فانتسب إلى مدرستها النظامية التي كان يشرف عليها **إمام الحرمين الجويني**، وهناك وجد الغزالي ضالته، فأقبل ينهل من معين المعرفة ويقبس من أستاذه فنون العلم ومسالك النظر وحرية الفكر، ولما توفي شيخه **الجويني** فارق نيسابور حزينا وله من العمر ثمان وعشرون سنة، وكانت وجهته **بغداد**.

وفي **بغداد** ذاعت شهرة الغزالي وظهرت موهبته في العلم والمناظرة والفصاحة حتى صار إمام العراق بلا منازع، بعد أن نال إمامة العلم في نيسابور قبلها.

ثم سافر إلى **الشام** فبقي فيها قريبا من **عشر سنين معتزلا مجاهدا نفسه**، ولما رجع إلى بغداد لم يلبث أن هجر التدريس ورجع إلى بلده طوس حيث اشتغل بالاعتكاف وتصنيف الكتب والعبادة أكثر وقته إلى أن توفاه الله ولم يجاوز الخمسة والخمسين عاما.

جمع الغزالي بين **الفقه وأصوله والفلسفة والكلام والمنطق والتفسير والتصوّف**، ومال إلى **التصوف** وكان هذا المنحى بارزا في أشهر كتبه (**إحياء علوم الدين**) الذي كان له أثر كبير من بعده.

وقد آمن الغزالي **بالشك** طريقة ومنهجا في الوصول إلى الحقيقة، يقول:"**الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلالة**." (الغزالي، ميزان العمل، ص409)

وهذا المنهج العلمي الذي **لا يقنع بالتقليد بل يحاكم الحقيقة إلى ميزان العقل** هو طريق العلم اليقيني الذي "ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم... فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك فيما علمته فلا... ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، **وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني**." (المنقذ من الضلال، 61)

وفي سبيل الاهتداء إلى هذا العلم اليقيني، **اختبر مقياس الحسّيات**، علّها تكون طريقا إلى العلم اليقيني فوجد أن **العلم من طريق الحواس غير مأمون**؛ فهذا الظلّ يُرى بالبصر كأنه ثابت ثم يظهر بعد ساعة أنه متحرك، وهذا الكوكب يراه الرائي صغيرا في مقدار دينار، ثم تدل الهندسة على أنه أكبر من الأرض في المقدار، فهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخوّنه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته." (المنقذ من الضلال، ص62)

ولما كاد الغزالي أن **يركن إلى العقل ومبادئه لاتخاذها طريقا إلى العلم اليقيني اعتراه الشك في العقل** **أيضا**؛ وذلك قوله على لسان الحواس تخاطب العقل: "بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات؟ وقد كنت واثقا بي فجاء حاكم العقل فكذّبني... فلعلّ وراء إدراك العقل حاكما آخر إذا تجلّى كذّب العقل في حكمه، كما تجلّى حاكم العقل فكذّب الحسّ في حكمه."

وبعد تردد وطول بحث اهتدى الغزالي إلى **أن أحكام العقل ومبادئه مقبولة وصالحة أن تكون طريقا للعلم واليقين. ولكن هذه الهداية نفسها إنما كانت بنور إلهي قذفه الله في قلبه فانكشف له طريق العلم.**

ويمكن أن نلخص رأي مذهب الغزالي في هذه المسألة بأن هناك طريقين للمعرفة: **طريق الحدس والكشف، وهو لا يحصل لكل إنسان، وطريق الاكتساب بدليل الاستدلال والتعلّم.**

ويبدو أن اليقين العقلي الذي التمسه الغزالي ورفعه إلى مرتبة اليقين الرياضي لم يكن سوى يقين مرحلي يعقبه يقين صوفي ذو مصدر علوي يقذفه الله في صدر العبد قذفا لا يخضع للضرورة المنطقية والأقيسة العقلية، وإنما هو تفضل إلهي يخص الله به قوما من عباده.

وقد كان الغزالي علامة فارقة في تاريخ الفكر الإسلامي وترك أثرا كبيرا يمكن تلخيص أهم معالمه في أربع نقاط:

1**/ أنه أعاد بث الروح في الشعائر التعبدية** كالوضوء والصلاة والصيام، وجعل الخشوع وعمل القلب فيها أعظم من عمل الجوارح الظاهرة التي أفاض فيها الفقهاء ووقفوا عندها.

2/ **أنه أعاد إحياء الخوف من الله تعالى والتزام أمره**، بعد أن ركن كثير من المتصوّفة إلى الحب الإلهي، حتى أن بعضهم أخلّ بالواجبات الدينية انحرافا وتواكلا.

3/ **أنه حبّب التصوّف إلى الناس، ونفى عنه ما علق به من ترّهات**، وأقرّ بالمكاشفة وأنها تصل بالمعرفة إلى ما لا يصل إليه العقل. ووافق الصوفية على القول بكرامات الأولياء وإتيانهم خوارق العادات.

4/ **أعاد عرض مسائل الدين عرضا لطيفا جذّابا**، وقرر أن الإيمان الذي يتحصل من طريق الكشف والرياضة والمجاهدة هو الطريق إلى الله لا طريق الفلسفة.